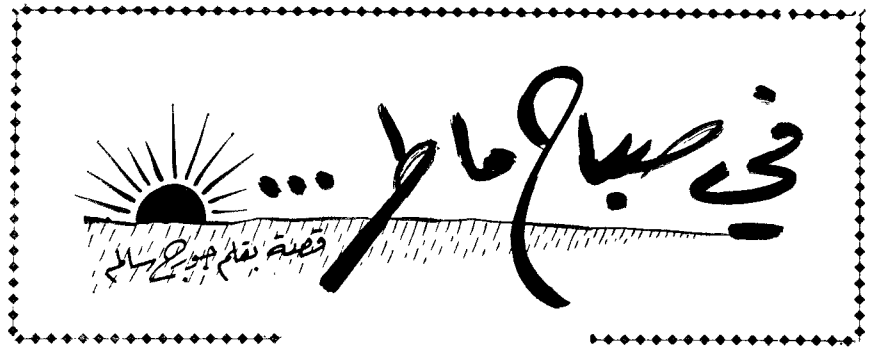

لست ادري لماذا اشعر برغبة ملحة في ان احدثكم عن ذلك اليوم الماطر ، وصباحه الكئيب القاتم . ان صفرته لا تزال ماثلة امام ناظري، وذكراه لا تزال تلاحقني منذ سنوات بعيدة . ومن يدري فلعلكم تشاطرونني تحمل عبء ذلك اليوم الذي وقفت فيه جامدا لا استطيع ان افعل شيئا .

كان ذلك في احد ايام كانون . استيقظت باكرا على عادتي كل يوم ، ورحت أتصفح بعض الدروس قبل ذهابي الى المدرسة حين تناهت الى مسمعي حركة غير عادية في حينا ، وان اية حركة تحدث في هذا الحي ، يشعر بها الناس جميعا . كان حينا ضيقا فلا تمر به عربة او سيارة ، وبيوته متلاصقة حتى ليسمع الجار حديث جاره ، والافراد طلعة الى ما يحدث لكل من سكان الحي ، لان الحيوات متشابهة ، والمصائر لا يكاد يختلف بعضها عن بعض . وكأنما كان هنالك سلك دقيق يربط الناس جميعا برباط واحد .

وارتديت ثيابي على عجل وخرجت من البيت ، فاذا امي وابي واخي الصغير الذي لم يكن يفقه شيئا مما يجري حوله ، قد سبقوني الى الوقوف امام باب الدار ، وحين أطللت برأسي من بينهم وجدت ان الجيران قد اصطفوا امام منازلهم ، وتجمع قسم منهم امام المنزل المواجه لنا .

كان ثمة نظرات يتبادلونها ، وهمسات وانتقال من مكان الى مكان رغبة في التمكن من الرؤية . وزحمت اهلي الذين كانوا يسدون علي الطريق ، وحين تقدمتهم قالت لي امي بالحاح :

ـ عجل في الذهاب الى المدرسة فقد حان وقتك .

الا انني ادركت من الحاحها هذا ، انها تريد ان تصرفني بسرعة ، فما كان مني الا ان ازددت شوقا للتطلع واجبتها :

ـ لن يحين وقت ذهابي للمدرسة قبل نصف ساعة على الاقل .

وتسمرت في مكاني .

لم استطع ان التقط ، اول الامر ، اية كلمة من افواه الناس ، مع كثرة كلامهم ، لان اصواتهم كانت خافتة وجملهم متقطعة . ثم برز اخيرا ثلاثة رجال يحملون جارنا العجوز . كان المنزل المواجه لنا منخفضا متهدما ، يتألف من عدد كبير من الغرف يلاصق بعضها بعضا ، وتحيط بباحة ذات احجار خربة متآكلة . وكانت هناك عدة درجات كبيرة تصل الباحة المنخفضة بالشارع الضيق ، فكان لا بد للصاعد الى الشارع ان يحني رأسه امام قنطرة الباب المنخفضة .

واذ التفت لاسأل والدي عن القضية وجدته يحرك يديه بعصبية :

ـ هل مات جارنا ؟!

فرفع رأسه ان لا ، وقالت امي بحرقة :

ـ ليته مات !

ولم تتابع كلامها ، فقد انبعثت عن الرجل العجوز صرخة قوية اذ ارتطمت احدى رجليه ببوابة البيت الحجرية .

ورأيت الوجوم يغشى وجوه النسوة ، والشفقة تعتصر العيون . كان الصوت الذي انبعث منه قويا حادا نفاذا اشبه شيء بنباح الكلاب . وشعرت بالغصص في حلقي ، وانا ارى الى بنطاله الاسود يتدلى فارغا من كلتا ركبتيه . كنت اعلم ان جارنا كسيح ، ولكن لم يدر في خلدي قط كيف يكون المرء كسيحا . وادركت الان بسرعة ان ليس لهذا الانسان من ارجل ، بل له فخذان فقط ، وان احداهما هي التي ارتطمت بالبوابة الحجرية منذ لحظة ، فآلمته ايلاما شديدا .

لست أدري متى أقام هذا الرجل في المنزل المواجه لنا . لانني اعرف انه يسكن هذه الغرفة منذ بدأت أدب في هذا الحي . وكنت انزل بعض الاحيان ، لالعب مع اولاد الجيران في هذا المنزل ذي الغرف الكثيرة ، فنقترب جميعا ببطء وحذر من النافذة الوحيدة في غرفته ، نتطلع اليه . كنا نراه دائما جالسا القرفصاء على طراحة ، وقد غطى رجليه بغطاء صوفي . لم يكن يزوره احد ، بل كانت تمر عليه خادمة مسنة ، عصر كل يوم ، وهي منصرفة من الخدمة ، تحمل اليه صرة صغيرة ، وقد لمحتها غير مرة تنظف له الغرفة وتعنى به ...

ولقد علمت فيما بعد ـ ولست اذكر كيف كان ذلك ـ ان له ابن اخ يسكن في الحي المجاور ، وكان ابن اخيه هذا يأتي الى بيت عمه كل يوم احد فيحضر له شيئا من الطعام ويتفقده بسرعة ، وقد رأيته يوما يملأ له نابض الساعة التي على الحائط . وكنا انا وابناء الحي نضحك من ابن الاخ هذا الذي يكاد يبلغ عمر عمه .

نرك احد الرجال الثلاثة الذين كانوا يحملون الرجل الكسيح العبء الى رفيقيه ، ومضى مسرعا ليحضر حمارا كانوا قد اوقفوه في اخر الحي . ولم اكن قد انتبهت اليه حتى ذلك الحين . بينما وقف عدد من الرجال الغرباء عن الحي بالقرب منه . وسارعت احدى الجارات تحمل الى الرجل غطاءه الصوفي وهي تردد :

ـ الطقس بارد ، بارد جدا .

وسمعت احدى الجارات تقول لامي :

ـ هؤلاء هم الموظفون .

فأجابتها امي بسرعة :

ـ موظفو الحجز .

وقالت جارة اخرى :

ـ الذي لايدفع اجرة البيت ، يخرجه صاحب الدار منه . اللهم نجنا .

والتفت الى ابي لاستطلع رأيه. فلم يجب بكلمة . بل أومأ برأسه.

ثم اضافت الجارة الثرثارة :

ـ لم نر صاحب الدار .

ـ لقد ارسل هؤلاء الثلاثة بدلا عنه مع الموظفين . ومعهم امر بتخلية الغرفة .

وتدخلت جارة غيرها تقول :

ـ ألم يكن باستطاعته ان يعفي هذا المسكين من اجـــار البيت ، ما اطمع الانسان !

وقالت الجارة الثرثارة بنبرة فيها الالم والحدة والسخرية :

ـ سيأخذ مالك البيت ماله معه الى العالم الاخر .

وتساءلت وانا في ضيق :

ـ ولماذا لم يدفعها ؟ وهل كان يدفع من قبل ؟..

وفي هذه المرة خرج ابي عن صمته ، وهو ينظر الى عيني تنطقان بالســـؤال :

ـ لم يكن له غير ابن اخيه ، واعتقد انك تعرفه . ومع انه لـــم يكن على شيء من سعة اليد فقد كان يؤمن لعمه اجرة البيت . وكـــان هناك من يرسل له الطعام بين الحين والحين .

واضطربت الكلمات في حلقه ، فقلت له :

ـ لم افهم .

ـ لقد مات ابن اخيه منذ حوالي شهرين .

ـ آه .. فهمت !

كان الرجل قد احضر الحمار ، فوضعوا عليه الكسيح ، وربطوه بحبل فبدا كأنه حزمة من الحطب في طريقها الى السوق . كان رأسه الكبير يلامس رقبة الحمار ويكاد يصطدم برأسه . لم نسمع الرجل الكسيح ينبس بأية كلمة ، او ينطق بأي حرف طوال نقله ، باستثنـــاء تلك الصرخة التي ظلت معلقة في الجو . وسار الحمار ومن ورائه العتالون والموظفون . كانت عيون الجميع تتبع الموكب متعبة .

وعاد معظم الجيران الى منازلهم الا بعض الثرثارات اللواتـــي كن لا يزلن يعلقن على الحادث .

ودخلنا جميعا الى البيت فرأيتني اسأل دون ان اقصد احـــدا بالســـؤال :

ـ الى اين اخذوه ؟

فقال أبي ببطء :

ـ أعتقد انهم سيأخذونه الى مأوى العجزة ، فليس هناك مـــن يـــؤويه .

وهزت امي رأسها :

ـ هذا اذا كان هنـــاك متسع لضيف جديد . فالمكان مكتظ بالعجزة . اخشى ان يضعوه على باب احدى الكنائس ، مع من نراهم كل يوم احد حين نذهب الى الصلاة .

كان أبي قد ارتدى سترته وتأبط غـــذاءه ومضى في صمت . فقالت له امي :

ـ لا تنس الشمسية .

وفي الواقع فقد كانت قطرات من المطر تهطـــل ببطء ، وازداد الجو حلكـة .

حين نظرت الى الساعة وجدت انها تقارب الثامنة ، فتنـــاولت كتبي واتجهت الى المدرسة . لم اكن افكر بأي شيء ، بل كنت اشعر بشيء يشبه الغصة في حلقي وحشت الخطا . ربما كنت اريد ان القي نظرة اخيرة على جارنا ، ولكن يبدو ان الرجال ساروا به في طريـــق اخرى ، ولم اكن اريد ان اطيـــل الطريق فبعد ربع ساعة يقـــرع جرس المدرسة .

كانت مدرستنا القديمة تقع في حي ضيق منحدر كثير التعرجات، ولمحت من بعيد عددا من رفقائي يسيرون ، فأردت ان اناديهم او ألحق بهم ، واذا بهم يتجمعون فجأة ويقفون في مكانهم ، وبقفزة واحـــدة كنت بينهم .

ونظرت الى ما كانوا ينظـــرون : كان كلب مقتول ممددا عـــلى الحضيض وقد سال من رأسه دم اسود وتخثر على شعره الاســـود الكثيف ، وظهرت قطع من الوحل عليه ، ورفس احد الطلاب قوائمـــه فلم يتحرك .

ـ انه ميت !

ـ ترى من قتله ؟

فلم نستطع ان نتكهن بذلك . وسرعان ما بادر احد الزملاء يقول، وقد بدا له انه يفوقنا علما واطلاعا :

ـ البلدية . هناك موظفون يحملون البنادق ويقتلون كل كلـــب يرونه شاردا في الطرقات لا اصحاب له .

وبدا لنا ان هذا التفسير معقول ، فاقتنع به الجميع . وتابعنـــا السير ، فالتفت الى رفيقنا اسأله :

ـ ولكن لماذا يتركونه هكذا في الطريق ؟

فمد شفته وقال لي :

ـ هذا امر لا اعرفه !

وتناهى الى سمعنا صوت الجرس فمضينا بسرعة .

كان المطر يتساقط على مهل ، على بلاط الطريق ، وفوق اكتافنا ، وعلى رؤوسنا .

جورج سالم

دار المعارف لبنان

بناية العسيلي ساحة رياض الصلح ص. ب. ٢٦٧٦

تقدم القصة التاريخية التي تصور حوادث الثورة الفرنسية ، قصة رجل من النبلاء كافح وناضل مع الشعب ضد الطغيان وحكم النبلاء الفاسد

سكارموش

قصة مليئة بالمغامرات والمغامرات والبطولة

تأليف الكاتب الشهير رفائيل ساباتيني

الثمن ١٠٠ ف.ل. أو ما يعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة